



- ١ -

حجب الشمس بأصبع، لم يعد جائزًا:

أجل. يجب الاعتراف بأن ثمة حرباً منذهبية سنية - شيعية شاملة، تدور رحاها بكل أنواع الأسلحة هذه الأيام على رقعة شاسعة تمتد من الهلال الخصيب إلى منطقة الخليج، مروراً بشبه القارة الهندية.

أجل أيضاً: هذه الحرب الأهلية الإسلامية الداخلية تجري داخل سياق صراع دولي، تقف فيه إيران ونظام الأسد ولبنان - حزب الله إلى جانب روسيا (الصين لم تقرر بعد أن تكون لاعباً دولياً أول في الشرق الأوسط)، فيما تصطف السعودية وبقية دول الخليج وتركيا وراء أميركا وأوروبا.

وهذا ما قد يوحى بأن لهذه الحرب شكلًا إيديولوجيًا، حيث يبدو أن المعسكر الأول "الممانع والمقاومة" يقف ضد إسرائيل والامبرالية، فيما المعسكر الثاني يدور في فلك هاتين الأخيرتين. بيد أن هذه الصورة لاهي حقيقة ولاهي واقعية.

صحيح أن إيران في حال اشتباك مع أميركا، إلا أن تاريخ ثورتها حافل بالصفقات المذهبة التي قد لا تخطر على أي بال إيديولوجي مع واشنطن: من إيران - غيت إلى الحلف غير المقدس في حرب أفغانستان، ومن توأطه إيران مع أميركا في غزو العراق العام 2003 إلى تقاسم الغنائم بينهما لاحقاً في بلاد الرافدين.

وبالمثل، صدام إيران مع إسرائيل لا يدور بسبب الاختلاف حول الشكل الإيديولوجي للآخرة، بل حول أحوال الدنيا الاستراتيجية في الشرق الأوسط.

محور الخلاف: القوة الإقليمية الصاعدة (أو التي كانت صاعدة على الأقل حتى ما قبل الانتفاضة السورية) تريد حصة في نظام الشرق الأوسط، وتل أبيب لازال ترفض انطلاقاً من اعتبارات "أنانية" واستراتيجية في آن.

- ٢ -

هذه اللوحة الحقيقة للصراع من فوق تجد صداتها من تحت، حيث تختلط صور "المقاومة والعمالة" إلى درجة مذلة.

فعلى سبيل المثال: كيف نفسّر كون شيعة العراق (أو بالأحرى قادتهم الطائفيين) كانوا على تحالف مع "الشيطان الأكبر" طيلة حقبة الاحتلال الأميركي للبلاد، فيما أشقاوهم في لبنان شكّلوا رأس الحربة في مقاومة "الهيمنة الاميركية".

هذا على رغم أن "الشيطان" (أمريكا) كما "المرجعية الملائكة" (إيران) هما إياهما في الحالين؟

على سبيل المثال أيضاً: كيف كان سنة العراق طليعة المجاهدين ضد الاحتلال والعلمة والرأسمالية، فيما أخواهم في المذهب في لبنان بقيادة الأسرة الحريرية طليعة المخالفين مع أمريكا، والداعين إلى الاندماج بلا قيد أو شرط بالعلمة الرأسمالية، حتى في شقها الليبرالية الجديدة المتطرفة؟

أكثر: كيف نبرر كون 80 في المائة من شبان الشيعة في إيران على علاقة غرامية سرّية مع أمريكا، كما تدل العديد من الاستطلاعات، فيما 80 في المائة من زملائهم في لبنان والعديد من الدول العربية الأخرى يعتبرونها وسواسة خنasse؟ الأمر هنا أشبه بـ"لعبة حاول أن تفهم"، أو بسيك فقد القائمون عليه السيطرة على برامجه فاختلط المهرجون بالجمهور، والجمهور بالمهرجين، ولم يعد أحد يدرى ما يجري.

لكن الصورة ليست كذلك. المسألة، ببساطة، تتعلق بصراعات سياسية، قومية، مصلحية، يتم خلالها استخدام الانتقام الديني أو المذهبي لتبرير الوطنية والخيانة معاً؛ التقليدية والثورية؛ والرجعية والتقدمية.

المذهبية الدينية هنا هي ضحك على ذقون من يريدون أن يضحك عليهم، أو أن يستخدموا أضاحي على قرابين الانتهازية والمصالح.

المفعول به وفيه معروف: إنها "الجماهير الطائفية" التي تقبل السير كالأغنام وراء قادتها الذين يقودونها إلى المسالخ الدموية. أما الفاعل فلا يقتصر، كما قد يعتقد البعض، على أمريكا والغرب، بل هو يتضمن أيضاً كل أو معظم الأطراف المنغمسة الآن في الصراع الإقليمي - الدولي الحالي في الشرق الأوسط.

وهكذا، يتبيّن الآن أن أمريكا وإيران معاً دعمتا في السابق غلاة الأصوليين السنة في العراق كل لهدفها الخاص: الأولى لاستكمال فرز السنة عن الشيعة، والثانية لإنهاك الأميركيين ودفع الشيعة العراقيين إلى أحضانها.

- III-

هل يعني هذا التسييس الشديد للصراع أننا ننفي وجود خلافات واختلافات فقهية تاريخية بين المذهبين الشيعي والسنّي؟ كلا بالطبع. لكننا هنا نطرح سؤالاً غير بريء: كيف أمكن للشيعة والسنّة التوحد في جبهة واحدة متراسمة خلال المواجهة بين الحركة القومية الناصرية مع الغرب خلال الخمسينيات والستينيات، إلى درجة اعتبار الأزهر الشيعية المذهب الخامس في الإسلام، فيما المجابهات الراهنة تستند، على العكس، إلى تفجير الصراعات بينهما؟

سيقال لنا أن هذه مستلزمات السياسة في هذه المرحلة. وهذا صحيح. لكن، سيتعين على من يقول ذلك اليوم ثم يقرن قوله بفعل التحرير المذهبي - الديني، أن يقبل غداً سقوط مئات آلاف "الشهداء" من كلا الطرفين من أجل "القضية" السياسية، وأن يسبح في بحيرات الدم القاني التي صنعتها يداه.

عليه أيضاً أن يعد من الآن كشوف حساباته الكاملة أمام ربّه، حول جريمة تجديد الفتنة الكبرى في الإسلام.

وهي فتنة تجري رحاحها الآن بكثافة، كما أسلفنا، من الهلال الخصيب والخليج إلى شبه القارة الهندية، بإشراف الأميركي - غربي شامل.

كيف؟ (في الحلقة الثانية)

اليوم غدا

المصادر: